حول تاثير العربية والفارسية في تكوين اللغة التركية

يوجد في الاتصالات الفكرية والحسية نوع من السيالية، فتعد هذه الاتصالات كأنها خاضعة لقوانين السيالية ، ومن المشهود أن الماء المنحبس في مستوى واطيء اذا وجد منفذا يتدفق صاعدا الى جهة الفوق ليصل الى سطح يوازي الماء الذى هو في مستوى اعلى لقانون توازن المياه ، وكذلك التناسب الحسى والفكرى يبدي حركة سريعة نحو التوازن كأنه خاضع لقانون التوازن ، ولذا لا يكون التوازن فى ساحة الحس والخيال مقيدا بشرط المساواة في قدرة الابداع . فقوم انجب فنانين يبدعون تحفا فنية لا تسامي اذا قارناه بقوم لا يستطيع صناعه أن يوجدوا بدائع فنية وجدنا أرباب الصناعات من الفريق الثاني في مستوى واحد مع المبدعين الاصليين من ذلك الفريق سيفي الشعور بعظمة تلك التحف والاحساس بها بكل تقدير واكبار ، ولولا صعود شعور هؤلاء الى مستوي شعور هؤلاء لما شعروا بقدر تلك التحف ولا أعجبوا بتلك البدائع ، بل غير الفنانين ايضا قد يبدون كمال التقدير ونهاية الاعجاب تجاه بدائع الصنعة ، وهذا الاعجاب منهم يفيدنا تعالى نظرهم لذلك الاثر من تحت الى فوق فى مستوي حس مبدعه وخيال صانعه .

والاتراك الذين نزحوا من ديار آسيا البعيدة الى أناضول وأسسوا الدولة العثمانيه كانوا متأثرين فكرا وحسا منذ عصور بمدنيات أمم ساكنهم اجدادهؤلاء من قبل فى ايران وبلاد العرب حتي ان مؤسس الدولة التركية التى خلفت الدولة السامانية فى (غزنة) كان بحيث يلذه الاصغاء في قصره الى الاشعار الفارسية التي

نظمها شعراء الترك ، ويقدم الفردوسي اليه الشاهنامه باللغة الفارسية ويؤلف العتبي تاريخه المعروف باسمه وهو آية فى الادب العربي فيظهر من ذلك مستوى هذا المؤسس في اللغتين مع كونه تركى الأرومة ، وكذلك مولانا جلال الدين ذلك المتصوف الكبير في بلاد الترك كتب كتاب (المثنوي) باللغة الفارسية وخاطب به اهل بلاده فى وسط أناضول ، ولا يدل هذا على ان الشاعر تركى لأن أمته من غير ما سبب رغبة فى الافادة عن افكاره واحساساته بلغة أمة سوى امتها على خلاف ما فهم كثيرون. بل يدل هذا على امكان الرقى فى الحال باتباع قانون التوازن بدون انتظار الى انقضاء مدة تمكن من رقى لغتهم الى مستوى المدنية الفكرية والادبية التي لا مسوغ مع خضوع التكامل فى اللسان بعوامل بطيئة ولو ملكوا فى لغتهم من مواد البيان قدر ما هو موجود فى الصنعة الأدبية الايرانية من وجوه الافادة لما ترددوا فى الكتابة باللغة التركية بل كان إذ ذاك الشاهنامة الفارسية تكتب باللغة التركية على ان تكون شاهنامة الأتراك كما كتب (سلطان ولد) - نجل مولانا جلال الدين - باللغة التركية اشعاره التي خاطب بها عوام الناس ، ولو كان مولانا جلال الدين يملك سليقة تركية تمكنه من اتخاذها واسطة لتبليغ افكاره المجردة العالية لكتب باللغة التركية كتاب (المثنوى) الذى خاطب به الخاصة ، ولسان الترك الذى بدىء في استعماله فى الدولتين السلجوقية والعثمانية باكمال نقصه بكلمات عربية وفارسية حيما كان يسير فى طريق اعتلائه الى مستوى ان يكون لسان العلم والأدب - كما هو عليه اليوم - احتفظ بلغته ولم يستبدل بها العربية أو الفارسية ليدخل تحت سلطان اللغتين وسيطرتهما ، بل لغة الترك التي هى غير كافية للتكلم بلسان العلم والتصوف الناطق بالافكار العالية المجردة الآخذة بقدرة اعتلائها عن شواهق العلم والتصوف ضمت الى نفسها كلمات من لغة الامتين الشقيقتين فى الدين حتى اصبح اللسان العثماني كامل الافادة فى العلم والادب بفضل هذه الزيادة وبما ضم اليه كل من توابع

الشعراء والادباء والعلماء مدى الدهور من بدائع الصنعة وروائع الفن وبصقلهم المتواصل لهذا اللسان اللطيف على رغم مزاعم من يدعى : ان الكلمات الشعرة للأفكار العالية نبذت لأسباب غير قابلة للايضح . لان هذا العمل ليس أثر أمم استولت على اللغة التركية بل ذلك وليد ثقافة الاتراك العثمانيين نفسهم ونتيجة مدنيتهم انفسهم حتى اصبح اللسان العثمانى كلسان اصلي لهم بعد استيلائهم على أمم شاطروهم فى الفكر والحس وطاولوهم فى الشعور والاحساس فالكلمات العربية والفارسية فى هذا اللسان قد اندمجت فى تصريف صيغ الافعال التركية وانعجنت فى عجين اللسان المبتكر بدهاء الاسلوب العثماني بأيدى شعراء وأدباء مبدعين حتى فقدت تلك الكلمات اصلها بتحويل طبائعها الاشتقاقيه الى قواعد الالتصاق فى اللغة التركية فصارت اصلا للسان الترك الادبى والعلمي الحديث ، وليس هذا التطور مما انفردت به اللغة التركية فى تاريخ الالسن واللغات ، فدونك فى الغرب تحول لسان الغول بعد استيلاء (روما) عليهم الي لغة فرانسه الحالية التي عليها مسحة لغة اللاتين ولسان فرانسه اليوم بينما تراه يشبه لسان عهد الانهزام الابدى الذى ارغم الفاتحون المغلوبين على قبوله لا تجد اللسان العثمانى كذلك بل هو من غنائم الفتوح التى اغتنمها الاتراك الفاتحون من المغلوبين حتى ان عرش الشاه اسماعيل فى المتحف الهمايونى — فى الآستانة — يدخل فى عداد مفاخر الامة ولا يعد مفخرة لاجنبى ، فكيف يعقل ان تطرد الكلمات العربية والفارسية من سليقتنا ومن حجيرات ادمغتنا بتهوس همجى بدعوى أن زينات الكلمات وتراكيبها (مينياتور) إيراني ونحوت عربية ؟ وهذا يكون اشبه باخراج السجاجيد العجمية الفاخرة والاقمشة الحريرية الشامية من ريش الغرف ونبذها باعتبار أنها عجمية أو شامية ، والايرانيون سبقونا فى الاستعانة بالعربية فى ساحة التفكير وابداء ما فى الضمير وقد احتذيناهم فى ذلك ، ولا يصح أن نورد كتاب الشاهنامة المكتوبة بالكلمات الفارسية المحضة كحجة مضادة لنا من

حيث أن الكلمات العربية أدخلت فى الفارسية رغم وجود مرادفاتها فى اللغة الفارسية لأن الشاهنامة أثر ملؤه الحكايات الأسطورية وليست بكتاب علمى يضيق نطاق اللغة عن إفادة ما احتواه من المعانى العلمية على ان سبق من ناظمه التزام الفارسى البحت في نظمها ، وكذلك لا يصح أن يقال ان ابن سينا التركى والفارابى التركى ألفا مؤلفاتهما باللغة العربية أو الفارسية ودرسا العلوم العقلية باللغتين بدون أن يريا حاجة الى التزام تعصب قومى ، لنظر الى ان العلوم العقلية التى كانا يدرسانها أتت الينا بواسطة العرب وأهل فارس .

إن (آناتول فرانس) من اكابر ادباء اللغة الفرنسية المعروفة للغة اللاتينية يستطرد عند تحدثه عن اشعار (لافونتين) في كتابه المسمى (العبقرية اللاتينية) الى الحديث عن اللغة الفرنسية وادبياتها فيصفها بأنها تراث مقدس متوارث من الماضى منقول الى الاخلاف بيد اهتمام الأسلاف قرنين وتقول : يجب بيد هذا اللسان وشعره وأدبه بكل مخزوناته البديعة فى أذهان اطفال فرنسة وهم في حجور امهاتهم . وهذا الاديب المرتبط بوطنه وأمته برباط قوى من الحب لم يسمع امثاله من ادباء قومه لم يسمع منهم — ولن يسمع — أن حاولوا بدعوى احياء لسان الغول القديم ابعاد اللاتينية عن الفرنسية بل ابعاد الفرنسية من فرنسة نظرا الى وجود كلمات لاتينية فى اللسان الفرنسى ، واشمئزاز منها ، واللسان الفرنسى لغة فرنسة الذين هم اليوم أخلاف (جولوا) وكذلك اللسان العثمانى لسان الأتراك الذين هم اليوم اخلاف الاويغور والاوغوز ، وكم لنا من (لافونتين) عندنا جمعوا هذا التراث المقدس الموروث من الماضى فلا تكون من حق احد محاولة فك ربط هذا اللسان البديع وتبديد كلماته بادعاء ان فيه كلمات اجنبية وحيث جاء الاسلام الينا بطريق إيران اتصلت الأتراك بالمدنية الاسلامية بطريق الثقافة الايرانية وكان المبدعون من العثمانيين خاصة وقعوا فى تكاملهم الأدبى تحت تأثير آثار

الايرانيين اكثر من وقوعهم تحت تأثير آثار العرب، وليس معني هذا التأثير التقليد ، ونحن اذا قارنا شعراء العثمانيين بشعراء العرب مثلا فالشاعر المشهور (نابي) التركي المعروف باشعاره الحكمية نجده شاعرا كبيرا يشبه (المعري) وهو قد قرأ الدواوين العربية طبعا لكنه لم يقلد شعراء العرب في اشعاره المشهورة التي خطتها يراعته بل كان استاذا فذا في مدرسة حكمة مستقلة ، وأبياته الآتية المشهورة له في (نعت النبي) عليه السلام تعطينا فكرا عن مجال تفكير هذا الشاعر واسلوبه وتلك الأبيات هي هذه :

ايله بازار جهانه برآنور كوزله نظر كيمي همدست رواج و كيمي همكرد كساد

(يعني : انظر الي سوق العالم بعين الاعتبار فبعضهم بيده بضاعة رائجة وبعضهم عرضة التأخر بسبب الكساد)

نه بوترتيب حكم جمله بني آدم ايكن بريسي خانه يدر بريسي اولمش ايرعاد

(ماهو السبب في ترتيب هذا الحكم مع ان الجميع سواسية في انهم بنو آدم احدهم غني يستبني بيتا والآخر فقير يشتغل عملا في البناء .)

بوفنا سير كهنده عجبا وارمى اوله
صيدايجون كندي صيدا ولديمن آكلار صيد

(وهل يوجد في هذا العالم البالي السائر الى الفناء صيد يشعر بانه صيد في سبيل اقتناص الصيد ؟)

اى ايدن جامهٔ اطلسله تفاخر كوزك آج سكا اطلس كوزو نور برك حقير فرصاد

(يامن يتفاخر بلبس الاطلس افتح عينيك يتراءى لك ورق الفرصاد الحقير أطلسا !)

عارف اول دست كشد اوله عطای جرخه
نه عطا ایلرایسه آخر ایدر استرداد

(كن عارفا ولا تمد يدك الى عطاء الزمان فان كل ما اعطاه يسترده في الآخر)

سكا خلق او لدی جهان سندن آلور فیضی ینه
احمد آباده كلور امتعهٔ خير آباد

(خلق لك العالم والعالم يستفيض منك ايضا فهاهى تأتي امتعة (خير اباد) الى (احمد آباد) ! بلدان فى بلاد العجم يشير الى ان خيرات العالم التى هى بسبب فخر العالم عليه السلام ترد الى العالم الذي عمر بسبب احمد المصطفى فالخيرات منه واليه)

سنك اوصافكي عداتمك ايجوندر يوقسه
بوقادار اولمز ايدى نامتناهى اعداد

(لم تكن الاعداد غير متناهية الى هذا الحد لولا ان المقصود بذلك هو تعداد اوصافك)

رهزنه راست كلان رهبروه دوندم آخر
ايلدي نفس وهوا قد حياتم برباد

(صرت كسالك طريق صدفه قاطعه وقد جعل النفس والهوى تقدحياتي يذهب ادراج الرياح)

آفتابك ايشيدر غوره بى انكور ايتمك
سيئاتم حسنات اولور ايدرسه ك امداد

(من عمل الشمس جعل ما فى الكمامة عنبا فاذا امددت تصح سيئاتي حسنات)

بنده کی جرأت مدحك او سبيندركيم
کلدی نطق ايتدي حضور کده نباتات وجماد

(واجترائی علي مديحك نشيء من أن النباتات والجمادات أتت واخذت تنطق فی حضورك)

وعدّ أدبيات أكابر المبدعين من شعرائه من أمثال : (فضولی وباقي وتمعي وزاتی ونديم) غير قومية بعدّها أدبيات السرايات والقصور القد فيها طراز أبيات العجم أو بعدّها أدبيات الأمة بمعني أنها تترنم بلاحسسات العامة لمعشر الاسلام المشتركة بين العرب والفرس والترك وغيرها بلغة ملحومة من تلك اللغات بابعادها هكذا عن ان تكون أدبيات تركية صرفة ، فالتصدی فی کتب تاريخ أدبيات الترك الحديثة لتقسيم الادبيات هكذا تحت عنوين مصطنعة مما يدل علي أن مدونی تلك الكتب غاب عنهم علة مجری الادب التركی علی موازاة جريان التاريخ ، والدور الذی يسمونه (دور أدبيات الأمة) — في صدد التعريض للاسلام — هو دور الفخر حقا ولو لم تكن الاتراك مسلمين كانوا يتغنون بتلك المفاخر ايضا لكن كان اذ ذاك (تمعي) الذي قال في (كنج عثمان) - السلطان عثمان الثاني الشاب — :

آفرين ای روز کارك شهسوار صفدری
عرشه آص شيمدنكره تيغ ثريا جوهری

(مرحی لك يافارس الدهر القذ المخترق لصفوف الاعداء علق علی العرش سيفك المصنوع من جوهر الثريا)

تيغكه نوله يمين ايلرسه روح مرتضی
برغزا ايتدك كه حوشنود ايلدك پيغمبری

(ماذا على روح المرتضى لو حلف بسيفك الباتر فقد غزوت غزوة أرضيت بها الرسول وهش لها عليه السلام) لا يتأخر عن اقامة اسم مقدس — عندهم — بدل اسم النبي عليه السلام .

ويوجد بين أدباء فرنسة دينيون امثال (شاتوبريان) و (لامارتين) حتي ان (فولتر) الذي شهر باللادينية لم يأب ان يظهر غاية الخضوع للبابا والتفاني في اجلاله كما هو شأن الدينيين من النصارى حيث قال في أثر قدمه اليه : (مقبلا لقدميك) مع ان الخضوع الى هذه الدرجة مما تأباه عزة النفس والكرامة الانسانية ولم تقسم أدبيات فرنسة الى مثل ادبيات الأمة مع وجود آثار شعراء دينيين فى ادبهم تترجم عن الاحساسات النصرانية التي لا تنحصر في داخل الحدود الفرنسية بل تفيض وتشمل . والتقسيم الطبيعي للأدبيات هو تقسيمها الي اقسام الحماسه والفخر والنسيب والمديح والهجاء والرثاء واي قيمة تكون لتلك التقسيمات المصطنعة بعد تنويع الادبيات الى انواعها الطبيعية ؟ وادبياتنا التي يراد عدها غير قومية بتقسيمها الى إدبيات الديوان وأدبيات السراى وادبيات الأمة ، اغلبها أدبيات دور تعده الأمة مدار فخرها بحق ، ويوم كانت جيوشنا تجول فى عواصم اوروبا ما كانت الأمة تقاسى نكبات كانت تقاسيها فى عصر الكاتبين المشهورين (شنسي) و (كمال) الذي يعده حدثاء المورخين: الدور القومى للأدبيات، فكيف يتصور ان يكتب الشعراء قبل ايام النكبات اشعارا عن النكبات والدفاع عن حقوق الأمة السياسية المهضومة ، ودور (شناسى) و (كمال) ليس بدور دخولنا فى دائرة مدنية اوروبا بأدبياتنا ايضا كما يزعم بعضهم بل دور (شناسى)و(كمال) هو دور أخذ فيه المبدعون من شعرائنا يفكرون فى ساحة حقوق المجتمع وواجباته بعد انقضاء زمن وهى الفتوح لنشائد الفخر فأيام شناسى و كمال أيام سيادة حالة الدفاع في الدولة ، بدأ فيها الأدباء يقتبسون من أدبيات اوروبا السياسية دساتير

اجتماعية لم تكن تجري على الألسن في عهد مدنيتي العرب والفرس ، وكان الاقتباس من الغربيين مستقرا في هذه الدائرة المعينة الحدود حتى بقي لساننا وادبياتنا الى الزمن الاخير في غاية البعد عن ان يمسها تيار التغيير والتحريف المتسلطين من الغرب على كل شيء في الشرق حتى المقدسات ، بفضل ذلك الوقار القومي المغروس في النفوس من ترهة الماضي الخوارثة ، بل لم يحصل أي تحول في شعرنا مما يحق ان يعد اوربيا عن شكل صوغه ذات اربعة عشر مصراعا والكلمات الافرنجية التي لا يستسيغ استعمالها في النثر الا بصعوبة لم يقع استعمالها في شعر جدي ولا مرة واحدة رغم كل ما وقع من وجوه التفرنج في حياتنا الاجتماعية .

وشاعرنا العراقي المشهور (فضولي) المتوفى عن حرقة عشق بالغ كابن الفارض بمصر يفيد احساساته في شعره بيجدن غيره في الغالب فهل يمكن لنا ان نطرد هذا الشاعر من زمرة شعرائنا القوميين بسبب أنه يوجد في اشعاره طراز العرب والفرس في المضامين والاستعارات فضلا عن التراكيب والعبارات او بسبب انه ينظم اشعارا في العشق المحض مع انه يقول :

نسج من اهدى النفوس الى المني ... وقدر اشكال الأمور وحلها
تقدس من لولا اعانة فضله ... لما علم الاسماء آدم كلها

و :

اثني على خير الأنام محمد ... كشف الدجى بضياء بدر جماله
بثنائه رفعت مدارج قدرنا ... خصت تحيتنا عليه وآله

و :

وصلك بكاحيات ويريز ، فرقتك ممات

سبحان خالق خلق الموت والحياة

[يعني : وصلك يعطيني الحياة وفرقتك المماة]

حون خاك كربلاست فضولى ، مقام من
نظم بهر كجا كه رسد حرمتش رواست

در نيست ، سيم نيست ، كهر نيست ، لعل نيست
خاكست شعر بنده ، ولى خاك كربلاست

ومعني البيتين في اللغة الفارسية : حيث كان تراب (كربلاء) مقامي يفضولي يستحق نظمي الاحترام أينما وصل ، ليس نظمي درا ولافضة ولا جوهرا ولا نقدا بل شعر هذا العبد تراب ولكنه تراب كربلاء .

وشعره التي كتب هذا الشاعر هكذا بالعربية والفارسية أو من نوع الملمع بالعربية والتركية داخلة في عداد تراثه الأدبي ، و (فضولي) هذا بديوانه القيم هو شاعرنا الكبير الوحيد في اللهجة الآذرية التركية .

ابراهيم صبري